وصية نبيّنا الاعظم:

كلّكم راع
وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته

من محاضرات سماحة المرجع الديني
آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي دام ظله

إعداد وتحرير القسم الثقافي
في مكتب المرجعية

هوية الكتاب

❊ الكتاب: كلّكلم راع وكلّكم مسؤولٌ عن رعيته

❊ من محاضرات سماحة المرجع الديني

آية اللّه العظمى السيد محمد تقي المدرسي دام ظله

❊ إعداد وتحرير القسم الثقافي في مكتب المرجعية

❊ الطبعة الأولى ١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

❊ الناشر: دار طريق الهدى للطباعة والنشر - قم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

المقدمة

في صحـــراء قاحلـــة، بأوعـــر بقـــاع الأرض حجـــراً، وأضيـــق بطـــونِ الأوديـــة معاشـــاً، بـــين جبـــالٍ خشـــنة، ورمـــالٍ دَمثـــة.. وبعيـــداً عـــن الحضـارات المزدهـرة عـلى وجه البسـيطة.. عـاش المجتمـع الجاهلي، مجتمـعٌ شـعاره الخـوف، ودثـاره السـيف، وتعمّـه جاهليـةٌ جهـلاء، لا يـرى حرمـةً، ولا يحفـظ عهـداً، وبـدل أن يتعـاون ليتحـدّى أعـداءَه، يتقـوّى بعضـه عـلى بعـض ليصنـع لنفسـه سـيادة مزيفـة وعرشـاً وهمياً يُرصـع بالأشـلاء المتناثـرة ويُصبـغ بالدمـاء البريئـة.. ولا عجـب بعـد ذلـك أن يكـون الجـوع والفقـر سـمته العامّـة الـتي لا يفـرّ منهـا سـوى نفـرٌ قليـل.

ولكـن، شـاءت إرادة الـربّ أن تعمّـه رحمتـه الواسـعة، وينتقـل مـن

حـالٍ إلى أحسـن حـال، فأرسـل إليـه خـير المرسـلين، وتمـام عـدّة النبيـيّن، ليصلـح مـا فسـد مـن أمـوره، ويرمـم مـا هُـدم في نفـوس أفـراده.. ولـم تمـضِ الأيـام والسـنون حـتى صـار العود الميِّت شـجرة باسـقة، والنبـع الغائـر متدفِّقـا، فأثمر حضـارةً كانـت رحمـةً للعالمين.

كان ذلـك هوالمجتمـع الإسـلامي. ذلـك المجتمـع الـذي وإن تشـكَّل مـن نفـس أفـراد المجتمـع الجاهـليّ، ولكنَّـه اختلـف معـه كليّـا، فـكأن النـبيَّ المصطفـى ﷺ أعـادَ بنـاءَه مـن جديـد، إذ نفـخ فيـه روحـاً جديـدة، ورسـم لـه دسـتوراً لحيـاةٍ طيِّبـة، وأزاحَ عنـه كلَّ الأثقـال الـتي منعتـه مـن الانبعـاث الحضـاري، فسـلك طريقـه نحوالفـلاح.

أفلا نقرأ وصفَ ذلك في كتابِ الله تعالى:

﴿الَّذيـنَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّـبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذى يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبـاً عِنْدَهُـمْ فِى التَّـوْراةِ والْإِنْجيـلِ يَأْمُرُهُـمْ بِالْمَعْـرُوفِ ويَنْهاهُـمْ عَـنِ الْمُنْكَرِ ويُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبـاتِ ويُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِـثَ ويَضَـعُ عَنْهُـمْ إِصْرَهُـمْ والْأَغْـلالَ الَّـتى كانَـتْ عَلَيْهِـمْ فَالَّذيـنَ آمَنُـوا بِـهِ وعَـزَّرُوهُ ونَـصَرُوهُ واتَّبَعُـوا النُّـورَ

الَّذى أُنْـزِلَ مَعَـهُ أو لِئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـون﴾[1].

ولكـن مـا هـي تلك السـمات الـتي تمـيَّز بهـا حـتى وصـل إلى مـا وصل إليـه؟ كيـف كانـت علاقـةُ أفـراده ببعضهـا البعـض؟ مـا هـو نموذجـه القيـادي؟ وكيـف كانـت علاقـةُ أفـراد المجتمـع بتلـك القيـادة؟ والأهـم مـن ذلـك، كيـف نقـترب في زماننـا مـن صـورةِ ذلـك المجتمع الإسـلامي؟

ففـي زمـانٍ تراجعـت البشريـة عـن قيـم السـماء حـتى عـادت وكأنها في جاهليـةٍ أخـرى.. وبعـد طـول زمان، وبعـد أن خبى بريق الشـعارات الماديـة، اكتشـفت خـواءَ النمـاذج الماديـة في صناعـة المجتمعـات الفاضلـة، فصـارت البشريـة تبحـث مـن جديـد عـن النمـوذج الالهـي، كانــت الحاجــة الى اعــادة رســم ملامــح المجتمعــات - وبالتحديــد- المجتمعـات المسـلمة لتكـون أقـرب الى ذلـك المجتمـع، وتلـك الأمـة الـتي وصفهـا القـران الكريـم بأنَّهـا «خـيرُ امّـة اخرجـت للنـاس».

ومـع أن المرجـع الديــني آيـة الله العظمـى السـيد محمـد تقـي المـدرسي دام ظلـه قـد فصَّـل كثـيراً في كتبـه ومحاضراتـه منـذ أكـثر

1- سورة الأعراف، الآية١٥٧.

من نصف قرن عن سمات المجتمع الاسلامي، فبحث عن قيم التقدم في المجتمع الاسلامي، وعن صورة الحضارة الاسلامية[١]، وعن ركائز المجتمع الاسلامي[٢]، وكذلك عن قيمة الولاية الالهية في نظام المجتمع الاسلامي[٣]، إلا أنَّه لأهمية البحث ركَّز على سمات هذا المجتمع، وخصوصاً تلك التي تخلق فيه تميّزه الفريد، وكان ذلك محور مجموعة من الكلمات والمحاضرات العامة ألقاها على جموع المؤمنين في أيام عزاء سيد الشهداء عليه السلام.

ولضرورة البحث وفائدته، قام الأخوة في القسم الثقافي التابع لمكتب المرجع المدرسي في كربلاء المقدسة بتجميع تلك الكلمات وتبويبها، لتكون خطوة اضافية في اعادة تشكيل مجتمعاتنا بما يتناسب مع المجتمع الاسلامي الذي أراده الله تعالى.

مكتب المرجع المدرسي - القسم الثقافي

كربلاء المقدسة ١٥/ ربيع الثاني/١٤٤٧هـ

١- وذلك في كتاب المجتمع الإسلامي.

٢- وذلك في كتاب (في عراق علي والحسين متى وكيف تقوم الحضارة الاسلامية).

٣- وذلك في كتاب (فقه الولاية) وكذلك كتاب (الحضارة الاسلامية).

١

المسؤولية سبيلُ الإصلاح

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

يمتاز المجتمع الإسلامي بميزاتٍ كثيرة تشكِّل بمجموعها هويته المتميزة ونموذجه الفريد، وترتبط تلك الميزات بتطبيقه لتعاليم الدين الإسلامي، ومن أهم تلك الميزات (التواصي).

١- سورة التوبة، الآية٧١.

في قيمـة (التـواصي) يـرى كل فـردٍ نفسـه مسـؤولاً عـن سـائر أفـراد المجتمـع، بـل عـن الشـأن العـام أيضـا.

التــواصي هــو أن يــوصي كل واحــد غــيره، فيــوصي الأب ولـده، والولـد أبـاه، ويـوصي الأسـتاذ تلميـذه والتلميذ اسـتاذه، ويـوصي القائـد رعيَّتـه والرعيَّةُ القائـد، إذ أن الوصيـة بالحق، أو الصـبر، أو المرحمـة لا تختـص بطبقـةٍ دون أخـرى، ولا بفاضِـلٍ أو مفضـول، بـل إنَّ التـواصي مـن مـادة «التفاعـل» الدالـة على وجــود جانبــين يتفاعــل أحدهمــا مــع الآخــر، وهكــذا تحيــط الوصيــة بالخــير الإنســانَ مــن كُلِّ جانــب، وتشــحذ إرادتــه في ســبيل الاســتمرار في ســبيل الحــق.

وفي سـورة العـصر يبـين الـربّ مركزيـة هـذا المبـدأ فبعـد أن أقسـم بــ «الْعَصْرِ» بـيّن أنَّ كل إنسـانٍ خـاسر، قائـلاً:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1].

١- سورة العصر، الآية:٢.

لكن هناك استثناء من هذا الأصل، وهو من كانت فيه المقومات التالية:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾،

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾،

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]، يتواصون بالحق، وهذا عُمدة العمل. ولأن الحق ثقيل على النفس فهو يحتاج إلى الصبر ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

والتواصي في جوهره تحمّل للمسؤولية، إذ يرى الفرد نفسه مسؤولاً عما يحدث في محيطه، ومسؤولاً عن اصلاحه، أو مسؤولاً عن منع الانحراف في داخل المجتمع، وكلّما كان هذا الاحساس أعمق، كلّما كان تحمل المسؤولية أكبر وكان تطبيق قيمة التواصي أشمل في داخل المجتمع.

إذا عرفنا أهمية التواصي كركيزةٍ من ركائز المجتمع

١- سورة العصر، الآية:٣.

الاسلامي، فما هي تجليّات ذلك في المجتمع؟

أولاً: التربية القيمية

حين يرى كل فردٍ من أفراد المجتمع الاسلامي نفسه مسؤولاً عن سائر أفراد المجتمع، نجد تأثير ذلك جلياً في التربية، إذ لا تكون الأسرة وحدها مسؤولة عن الأجيال الجديدة، بل تتعاقب الأيادي الأمينة على تربيتهم فضلاً عن رعاية المجتمع لهم، وينتقل الطفل من يدٍ مؤمنة لأخرى أكثر إيماناً.

وتكون البداية من الأسرة المؤمنة التي تترك الأثر الكبير على مسيرة حياته، إذ لا تجد نفسها مسؤولة عن طعامه وشرابه ومسكنه فقط، بل ترى إلى جانب ذلك مسؤولية تنشئته ليصبح مؤمناً، وفرداً صالحاً من أفراد هذا المجتمع.

وكما أنها تحرص على أمنِه ووقايته من الأخطار المادية، كذلك تحرص على أن تحصِّنه من كل ما يلوِّث فطرته النقيّة، أو يطمس عقله الذي جعله الله حجَّة عليه.

فمن أسباب انحراف البشر تلوّث تلك الفطرة وانحرافها عن المسير الصحيح، وكما جاء في الحديث عن الامام الصادق أنه قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ اللَّذَانِ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِه»[1]. فالمسؤولية على عاتقهما كبيرة وحساسة.

وبعد ذلك تكرَّس في داخله تلك القيم التي أو دعها الله في العقل[2]، فيتربّى على الصدق، والشجاعة، والحِلم، والعِفَّة، والحياء، والزهد، ويتعلَّم كيف يتجاوز ما يخالفها، فيعصي شُحَّ نفسه، ويتجاوز طيشَ هواه، وهكذا.

وبعد تلك المرحلة، يبدأ الفرد بالانفتاح على أجواء

١- من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٩.

٢- تعبِّر الروايات عنها بأنها جنود العقل، وفي قبالها جنود الجهل.

المجتمـع الإيمـاني، فيـترك المجتمـع بصماتـه عـلى روحـه وفكـره، فينشـأ في أجـواء الشـعائر الدينيـة والإيمانيـة، ويتعلَّـم التعـاون والتـواصي، ويـتربّى عـلى الحـق والعـدل والاحسـان، و.. وهكـذا تكتمـل ملامـح شـخصيته الإيمانيـة.

وهكـذا يعمـل المجتمـع عـلى صناعـةِ الإنسـان الصالـح، والفـرد الـذي يسـتطيع أن يشـق طريقـه في الحيـاة، ليبـدأ هـو بـأداء واجبـه تجـاه غـيره مـن أفـراد المجتمـع أيضـا.

ثانياً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للتـواصي صـور متعـددة، ومظاهـر مختلفـة، ولعـلَّ مـن أوضـح مظاهرهـا، الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر.

وقـد ذكـر ذلـك في مواضـع متعـددة في القـرآن الكريـم، يقـول تعـالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ما هوسبب ذلك؟ لأنكم:

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١].

وقد ورد في آية أخرى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾[٢]، فبعد أن تتماسك الجماهير المتشتتة عبر تجمعات كثيرة تُصبح أمة، وتكون مهمتها الأساسية: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وكلمة «مُفْلِح» تعني من يحقق أهدافه الإصلاحية في الحياة.

وفي سياق آخر جاء: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. فالولاية المشتركة بين المؤمنين لأجلى دليل على صدق معنى الأخوة، على عكس ما هو معروف أن معنى «الأخ» يظهر عند الشدائد، فيكون أشبه بسحابة

١- سورة آل عمران، الآية:١١٠.

٢- سورة آل عمران، الآية:١٠٤.

طمأنينة تظلل عند هجير المواقف الحارة. لا، بل الولاية أساس هذه الأخوة. ولا ضير أن من معاني الأخوة المساعدة عند الشدة، وتنفيس الكرب، وتفريج الهم.

فـ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وهذا لأنهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

هذه الآية قدمت فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على فريضة الصلاة والزكاة، وهذا التقديم يعطي دلالة -أولاً- على أن هاتين الفريضتين ركنان أساسيان في الدين، وعلى أهميتهما داخل البناء الديني – ثانياً -.

ويقول أيضاً: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ﴾[٢].

١- سورة التوبة، الآية:٧١.

٢- سورة التوبة، الآية:١١٢.

فمـن صفـات المؤمـن المثـلى أنـه يأمـر بالمعـروف وينهـى عـن المنكـر.

وفي آيـة أخـرى يبـين ربنـا صفـات قـادة الحيـاة، يقـول: ﴿الَّذِيـنَ إِنْ مَكَّنَّاهُـمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُـوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الـزَّكَاةَ وَأَمَـرُوا بِالْمَعْـرُوفِ وَنَهَـوْا عَـنْ الْمُنْكَـرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الأُمُـورِ﴾[1]، وهـذا مـا جعـل لقمـان يـوصي ولـده بحـزمٍ: ﴿يَـا بُـنَيَّ أَقِـمِ الصَّـلاةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْـرُوفِ وَانْـهَ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَاصْـبِرْ عَلَى مَـا أَصَابَـكَ إِنَّ ذَلِـكَ مِـنْ عَـزْمِ الأُمُـورِ﴾[2].

عذابٌ للأخيار

شـعيب النـبي ﷺ في يـوم مـا، يُنـذره الوحـي بعـذابٍ سـيحلّ بقومـه حيـث أوحـى الله إليـه:

«انِّي مُعَـذِّبٌ مِـنْ قَوْمِـكَ مِائَـةَ أَلْـفٍ، أَرْبَعِيـنَ أَلْفـاً مِـنْ شِـرَارِهِمْ

١- سورة الحج، الآية:٤١.

٢- سورة لقمان، الآية:١٧.

وَسِتِّينَ أَلْفاً مِنْ خِيَارِهِمْ».

«عجباً وهل يُعذّب الأخيار» رُبما قالها شعيب في نفسه. فسأل النبي شعيب عليه السلام ربه عن سبب هلاك الأخيار، فقال: «يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ»؟! فأوحى اللّه عز وجل إليه بأنهم: ﴿دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي﴾[1].

فمن ترك فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صُبّ على رأسه العذاب البئيس، فهما ليسا عملاً تطوعياً، بل صمّاما أمان المجتمع. فلو شاعت الرذيلة في بلدٍ ما، وتفشت المفاسد، ثم قابلها الناس بالسكوت والمداهنة، فالبلاء المدمِّر مصيرهم المحتم. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

١- الكافي، ج٥، ص٥٦.

٢- سورة الأنفال، الآية٢٥.

فالعـذاب لا يشـمل الظالـم وحـده، بـل هـو مِثـلُ اعصـارٍ يلـفّ العمـران والخـراب معـاً، فمـن تـرك النهـي عـن الظلـم، لا يحسـبن نفسـه في مأمـنٍ مـن عـذاب الله تعـالى، وإن لـم تقـترف يـداه ذلـك الظلـم.

مميزات النهوض بالمعروف

لقـد أولى القـرآن الكريـم النهـي عـن المنكـر اهتمامـاً كبـيراً، أكـثر مـن فريضـة الأمـر بالمعـروف. وبالجملـة قـد أعطـى لهاتـين الفريضتـين المزايـا التاليـة:

مـن يقـوم بهذيـن الفرضـين يسـتفيد أكـثر ممـن أُمـر أو نُهي، فهمـا يكرسـان الإيمـان في القلـب، ويطهـران الـروح، ويمنحـان البصيرة.

نقـوم بهذيـن الفرضـين مـن أجـل حمايـة أنفسـنا، وحمايـة المجتمـع مـن مخاطـر المنكـر. فنشـكل مجتمعـاً مؤمنـاً

يمثل حائط صدٍّ في وجه مجتمع الفحشاء، فيخفف عنا ضغطه، ولا ننساق خلفه وفق ما يسمى بـ«حس التوافق الإجتماعي»، وبحسب المثل العربي المعروف: «حشر مع الناس عيد»، أو هل حشر مع الناس إلى جهنم عيد؟!

الرب سيبعد الأخطار والبلاء عن هذا المجتمع، كما يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].

التطهر من جرم المجتمع الفاسد، حتى لو لم تكن هناك استجابة.

الثواب الجزيل من الله تعالى.

ولهذا السبب كان مداد العلماء خيراً من دماء الشهداء، فقد جاء في الحديث الشريف: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ

١- سورة الأعراف، الآية١٦٥.

اللَّـهُ عَـزَّ وجَـلَّ النَّـاسَ فِـي صَعِيـدٍ وَاحِـدٍ، ووُضِعَـتِ الْمَوَازِيـنُ، فَتُـوزَنُ دِمَـاءُ الشُّـهَدَاءِ مَـعَ مِـدَادِ الْعُلَمَـاءِ، فَيَرْجَـحُ مِـدَادُ الْعُلَمَـاءِ عَلَـى دِمَـاءِ الشُّـهَدَاءِ»[1]، لأن النـاس رأوا الحقائـق عـبر هـذا المـداد، وتعلموا دينهـم بعنايـة، وصـاروا ينتهـون عـن المنكـر وينهـون عنـه، ويطبقـون المعـروف ويأمـرون بـه، فطهـرت أرواحهـم لدرجـة أنهـم حـين يـرون المقدسـات مهـددة، لا يـترددون في التضحيـة بأنفسـهم، فمـداد العلمـاء مقدمـة لسـيل دمـاء الشـهداء.

وهـذا المـداد ليـس هـو إلّا تطبيـق السُـنَّة الحسـنة الـتي أشـار لهـا الحديـث الشريـف: **«مَـنْ سَـنَ سُـنَّةً حَسَـنَةً فَلَـهُ أَجْرُهَـا وأَجْـر مَـنْ عَمِـلَ بِهَـا إِلَـى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مِـنْ غَيْـرِ أَنْ يُنْقَـصَ مِـنْ أُجُورِهِـمْ شَـيْء»**[2].

إذن، الإنسـان المؤمـن يتفكـر عـلى الـدوام في عالـم المعـاد، وفي خلـق السـماوات والأرض والشـمس والقمـر والليـل والنهار،

١- الأمالي (للصدوق)، ص١٦٨.

٢- الكافي، ج٩، ص٣٧٢.

ويترجم هذا التفكُّر في حالة من الخضوع إلى الله تعالى، وكما تقول الآية: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1]، المؤمن يعيش من أجل أن يقوم بدور الإصلاح، يستصلح الجميع مثلما يعمل الفلّاح في أرضه، فهو فلّاح نفسه والمجتمع والعالم.

لذلك علينا التوجه والعمل لإيجاد مجتمع يرتقي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينئذٍ يسمى هذا المجتمع: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

ثالثاً: الحصن الإعلامي

إنَّ التواصي يجعل المجتمع الإسلامي منيعاً لا ينفذ إليه الأعداء عبر الإعلام المضلِّل.. ففي زمن تتزاحم على الانسان تأثيرات الاعلام، لكثرتها، وتنوُّعها، مما لا يجد الانسان المعاصر قدرةً على التفكّر والتأمل، يأتي دور التواصي حيث يتحمَّل كل فرد من أفراد الأمة مسؤوليته،

١- سورة النساء، الآية:٦٥.

فيكـون مبلّغـاً وداعيـة، ويـؤدي دور التبليـغ والتعليـم والتذكـير[1].

كان الإعـلام سـابقاً يحتـلّ المرتبـة الخامسـة في سُـلم التأثـير في المجتمعـات، أمـا في عصرنـا الحـالي فقـد صـار في المرتبـة الأولى، بـل صـار يلاحـق جميـع النـاس في جميـع أوقاتهـم ولا يتركهـم حـتى وهـم عـلى فـراش نومهـم، وكأنـه خيـالٌ ينتقـل حيثمـا انتقـل صاحبـه.

وإذا كان للإعـلام هـذا الـدور الكبـير، فكيـف يسـتفيد المجتمـع الاسـلامي مـن هـذا السـلاح؟ ومـا هـي رؤيتـه في كيفيتـه؟ ومـا هـي منطلقاتـه وأبعـاده الهامـة؟

الجـواب: إن المجتمـع الاسـلامي يبـني رؤيتـه عـن الإعـلام وكيفيتـه، بطريقـة مختلفـة عمـا نجدهـا اليـوم، فهـو يبتعـد عـن ممارسـة الخـداع والتضليـل، أو اسـتخدام أدوات الإلهـاء

١- متى وكيف تتحق الحضارة الاسلامية في عراق علي والحسين (للمرجع المدرسي)، ص١١١.

والتجهيل، بل يعتمد على الحقِّ والصدق، لأنّه ينتمي لرسالة تعزّز القيم في المجتمع، ولا يمكن تجاوز هذه القيم تحت أي مسمى أو ضغط.

وكان هذا الالتزام سلاحُ قوّته، فبه انتشر الإسلام في فترة قياسية في ثلث العالم، وخلال عقدين من الزمن بدأت المجتمعات تدخل الدين الجديد أفواجا، حتى أنزل الله قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[١].

ورغم أنَّ الإسلام لم يستخدم أداة الخداع والتضليل، ولا كان انتشاره بسبب القوَّة والجبر، إلا انَّه استخدم أداةً فعّالة أخرى في سبيل نشر رسالته إلى كلِّ بقاع الأرض، فما هي تلك الأداة؟

١- سورة النصر.

إلى حيث يصل المسلم

في حجة الوداع، مهّد النبي ﷺ طريق المسلمين ليقوموا بدورهم في نشر الرسالة ومحتواها، فقال في كلمته في مسجد الخيف:

«نَضَّرَ اللَّهُ عَبْداً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وحَفِظَهَا وبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، ورُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُو أَفْقَهُ مِنْه»[1] ثم أضاف: «الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُم»[2].

هذه الكلمات تعني أن كلّ مسلم لابد أن يتحول لمنصة إعلامية مستقلة، ينشر كل ما يعرف، من دون تمييز بين هذه المعارف، يأخذ من كل شيء ويعطي للناس كلّ شيء، فلا يُحجِم عن تبليغ معرفةٍ لأنه لا يعرف هو أهميَّتها، بل قد يستفيد منها من هو أفقهُ منه؛ ومثله كمن يدخل

١- الكافي، ج١، ص٤٠٣.
٢- الكافي، ج١، ص٤٠٤.

حديقـةً غنّـاء، فتسـتهويه زهورُهـا، فيحمـل منهـا دون أن يلتفـت إلى نباتـاتٍ مشـوكةٍ الـتي لا يعـرف قيمتهـا إلا المختـصّ الـذي يسـتخرج منهـا عُصـارةً ليصنـع العقاقـير الطبيـة المهمة.

ومـن هـذا المنطلـق انتـشرت الكلمـة الـتي أطلقهـا النـبي صلى الله عليه وآله وسلم مثـل شـعاع الشـمس في كبـد السـماء، لأنهـا أخـذت تتمـاوج، فـكل شـخص - مثـلاً - صـار يبلغهـا لعـشرة، وهكـذا انشـطرت العـشرة لعـشرات، ثـم مئـات بـل ألـوف، فصـارت الكلمـة الواحـدة كأنهـا حبّـة أنبتـت سـبع سـنابل في كل سـنبلة مائـة حبـة.

فالإعـلام الإسـلامي منـذ اليـوم الأول اعتمـد عـلى فكـرة واحـدة: أن كل مسـلم داعيـة، وحـدود الإعـلام: مـا وطأتـه قدمـا مُسـلم، وهكـذا لا يمكـن لأحـد أن يقـف في وجـه اعـلامٍ قوامـه مليـار شـخص، ومهمـا امتلـك الأعـداء مـن وسـائل وامكانـات، إلا أنهـا تتضاءَل عنـد هـذا النمـط مـن الاعـلام[١].

١- ولا ينفي ذلك فائدة المؤسسات الاعلامية الرصينة ايضا.

فمن صور التواصي بالحق، هو ما يرتبط بإيصالِ الحق، وهو البعد الاعلامي في المنظور الإسلامي، ولا يعني أنه البديل عن ممارسة سائر وسائل الإعلام الأخرى.

ومن فوائد ذلك أنَّ المجتمع الاسلامي يتمتع بحصنٍ منيع، ومضلّة اعلامية قوية، تمنع من نفوذ اضاليل الاعداء وأكاذيبهم الى وعي المجتمع.

٢

الإصلاح بين الحالة الفردية والجمعية

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوالْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[١].

١- سورة الحديد، الآيات: ١٢-١٤.

يـوم القيامـة يـومٌ عظيـم، يـوم يقـوم النـاس لـربِّ العالمـين، يـوم تذهـل فيـه كل مرضعـةٍ عمـا أرضعـت.. في ذلـك اليـوم العصيـب حيـث الزحـام الشـديد، وأفضـل النـاس حـالاً مـن يجـد لقدميـه موطئـاً، هنـاك.. تبـدو الظلمـات فـوق بعضهـا كظلمـةِ الليـل الدامـس، إن أخـرج أحدهـم يـده لا يـكاد يراهـا.

لكنَّـه ليـس ذلـك حـال النـاس جميعـاً، ففـي النـاس المؤمـن والكافـر والمنافـق.. أمـا الكافـر فـلا نـورَ لـه ولا ضيـاء: ﴿وَمَـنْ لَـمْ يَجْعَـلِ اللَّهُ لَهُ نُـوراً فَمـا لَهُ مِـنْ نُـورٍ﴾[1]، أمـا المنافـق فـإنّ الآخـرة تتمثَّـل لـه حياتـه الدنيـا، فلقـد عـاش في ظلمـات الجهل والنفـاق في الدنيـا، وهـا هـي ظلمـات الآخـرة.

ويُسـتثنى مـن ذلـك المؤمنـون، حيـث: ﴿يَسْـعَى نُورُهُـمْ بَـيْنَ أَيْدِيهِـمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.

١- سورة النور، الآية: ٤٠.

وفي ذلك الموقف يجري النقاش بين هاتين الفئتين: فئة يسعى نورهم بين أيديهم، وفئة لا نورَ لهم.

ربما كان أحدهم يعرف الآخر في دار الدنيا، لعلّه كان جاراً، أو صديقاً، أو جمعتهم الحياة يوماً على طاولة واحدة في صفٍّ دراسي، أو كان زميلاً له في عمل.. كانوا في مجتمعٍ واحد، وفي بيئة واحدة، جمعتهم الدنيا تحت سقفها، لكنَّهم كانوا متمايزين.

ففي الدنيا لم يكن ليميِّز أحدٌ بينهم، لكنها الآخرة، تميِّز المؤمن عن الكافر والمنافق، كما تميِّز الحربُ الشجاعَ عن الجبان.

واليوم، كل حزبٍ نال مصيره، وبعدالة تامة، فالجنة فتحت بابها وسيق المتقون لها، وجهنم بانت شرارات الانتقام خلف بابها المفتوح، أما المنافق ينظر وينتظر، ينظر بخوف، وينتظر مصيره الأبدي بعينٍ حائرة، والندم

قد أخذ منه مأخذه.

هنا، ينادون زملاءَهم وجيرانهم في الدنيا:

﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾.

فيأتي الجواب:

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾.

ابحثوا في دنياكم عن عملٍ يكون لكم نوراً في آخرتكم.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

بدأوا يتساءلون أسئلة مثيرة: ما الفرق بيننا وبين هؤلاء المؤمنين؟ لماذا لم نكن معهم؟

فيأتيهم الجواب مثل صاعقة رهيبة تضرب الأجسام العالية، جاء ليضع حداً لاعتراضاتهم: ﴿بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

المؤمنون رأوا في ذلك النور ثواب ما قدمته أيديهم، جزاء اتّباعهم الحق والعمل من أجل إعلاء رايته، كانت المغريات صعبة لكن الطريق يستحق هذا الحرمان. هكذا بدأوا يفكرون بماضيهم المشرق بالأعمال الصالحة وهم فرحين. المنافقون يطلبون قبساً من هذا النور ولو على قدر مشكاة صغيرة، فهو يمثل عنواناً للفائزين: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾.

هيهات لكم ذلك ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ بهذه الكلمات التي وجهت لهم، تَكَسّرَ الأمل البسيط الباقي في صدورهم، كما يتكسر الزجاج بحجارة قوية.

لعل هذا الطلب جاء لأنهم أدركوا عجزهم التام عن العودة إلى الدنيا. لم يكونوا يحسبون لمثل هذا اليوم حساباً بسبب غرورهم وشهواتهم، فارتابوا وأنكروا المعاد، فكانوا عالقين في أمانيهم الزائفة وأحلامهم الخداعة.

لنكن من المصلحين

وهنـا يرسـم لنـا الـرب صـورةً صارخـة لأنـاسٍ عاشـوا مـع المؤمنـين في الدنيـا، سـمعوا النصيحـة مـراراً، لكنهـم تركـوا العمـل بهـا رغـم عطشـهم الباطـني لمثلهـا، لأنهـا كانـت صعبـة بالنسـبة لهـم وتحتـاج لعنـاء طويـل، وتحـرك ومواضبة مسـتمرين، وهكـذا تركـوا المـاء الـذي يكلفهـم السـعي لـه بعـض الجهـد والعنـاء، فاسـتبدلوه بـسراب خـادع! كانـوا يتكلـون عـلى الشـفاعة حسـب مـا فهمـت عقولهـم المُعطلة، يظنّـون أن الشـفاعة بديلـة عـن العمـل، أو أنّ التوبـة سـتأتيهم في آخـر العمـر، كأنهـا مرتـبٌ شـهري يـأتي آخـر الشـهر! فـإذا بالمـوت يدركهـم فجـأة، فيدفـع معـه كل الفـرص، فـلا تبقـى لهـم أي فرصـة بعـد معاينـة العالـم الآخـر.

وبـين هـذه الفئـات، يبقـى اختيارنـا نحـن، فقبـل انتهـاء كل شيء لنقـرر أن نكـون مـن ضمـن الفئـة المصلحـة الـتي تنعـم

يوم القيامة بالنور، بل لنقرر أن نشكل مثل هذه الفئة فننشرها في أرجاء المعمورة مثلما ينثر الفلاح البذور.

فالمصلحون ضرورةٌ في كل مجتمع، فهم بمثابة الرئتين اللَّتيْنِ تنقيان الهواء داخل الجسم، وبدونهما يختنق البدن، ويفسد الدم، وليس لهذا الجسد خيارٌ سوى الموت.

يقول تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[١].

فالمصلح يُمثل الجهاز المسؤول عن التنقية والحماية في المجتمع، ففي مسيرة أي مجتمع مهما كان طاهراً، هناك ذراتٌ متراكمةٌ من الفساد، ومهما كان مسيره مستقيماً يبدأ فيه الانحراف يوماً ما، هناك الحاجة إلى الفئة التي تعالج

١- سورة هود، الآية:١١٦.

الفساد عند أول وهلة، وتلك الفئة هم المصلحون.

لكن، إذا فُقِدت تلك الفئة، أو لم يستجب المجتمع لها، وصار يتمحور حول الرذيلة، لا يأبه بالإنذار والوعيد، ستكون في ذلك نهايته.

وفي الآية الكريمة، جاءت كلمة «لَوْلا» لعلها جاءت بمعنى «هلّا» وحسب مكانها هنا، فإنها تفيد معنى التوبيخ.

أمّا «أولُوا بَقِيَّةٍ» فهم بقية الأنبياء والأولياء والصالحين، تلك الفئة المؤمنة التي تنهى عن الفساد، وتقف سدّاً منيعاً أمام موجات الانحراف. هؤلاء ـ وإن قلّوا ـ هم الذين ينجّيهم الله من العذاب.

مصلحٌ واحد وعشرون مليون مصلح

أساس الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل ليس وليد اليوم، بل حصل منذ أمر الله ابليس أن يسجد لآدم عليه السلام

فـأبى، أمـا في الدنيـا فقـد بـدأت ملامحـه تظهـر بـين قطبـين متنافريـن، القطـب الأول: المبلّـغ الإلهـي، والثـاني: الطاغـوت، وفي زمانٍ غابـر كان التطبيـق لهذيـن القطبـين نـبي الله مـوسى عليه السلام وفرعـون.

وكان في ذلـك الدهـر مـن ضمـن الفئـة المصلحة مؤمـن يقصُّ لنـا القـرآن قصتـه، كان يعمـل في النظـام الحاكـم، لكـن في الحقيقـة كان جندياً في سبيل الله، وقـف في وجـه فرعـون وهـو يشـعر بكامـل المسـؤولية وقـال: ﴿وَيَـا قَـوْمِ مَـا لِي أَدْعُوكُـمْ إِلَى النَّجَـاةِ وَتَدْعُونَـنِي إِلَى النَّـارِ * تَدْعُونَـنِي لِأَكْفُـرَ بِـاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِـهِ مَـا لَيْـسَ لِي بِـهِ عِلْـمٌ وَأَنَـا أَدْعُوكُـمْ إِلَى الْعَزِيـزِ الْغَفَّـارِ﴾[١].

كلمـة (الْعَزِيـز) تعـني القـدرة، ومعـنى (الْغَفَّـار) أن الـرب يغفـر ذنـوب عبـاده المسرفـين، كمـا تقـول الآيـة: ﴿قُـلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِيـنَ أَسْرَفُـوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِـنْ

١- سورة غافر، الآيات: ٤١-٤٢.

رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[1].

ثم اكمل هذا المؤمن: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾، بمعنى أنكم تدعونني إلى أمرٍ لا قيمة له في الدنيا والآخرة، ثم قال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

فمهما كان منصبك ومركزك عليك أن تقوم بالإصلاح وأن تتصل بالله عن طريق وضع يديك بيد من يمثل نهج الرب في زمانك.

سر بقاء الأمم

لقد خصَّ الله تعالى الكرامة بالفئة المصلحة، وألبسها

١- سورة الزمر، الآية٥٣.

٢- سورة غافر، الآيتان:٤٣-٤٤.

قلائد العز في الدنيا والآخرة، فالعذاب يصيب المجتمع الفاسد، لكن نفس هذا المجتمع يرفع الله عنه العذاب في حالة كون المصلح فيه، فكرامة لهذا العبد لا يُعذَّب قومُهُ، فإذا خرج؛ صُبّ عليهم العذاب.

والسؤال المهم: يرفع الله عذابَ قومٍ استحقّوا العذاب لوجود مُصلحٍ واحد فيهم.. إما كرامةً من الله له، وإما لأن المصلح ما دام موجوداً، فإمكانية رجوعهم موجودة.. فكيف لو كان المجتمع مجتمع المصلحين؟ كيف ولو كان على وجهِ البسيطة هذه عشرون مليون مصلحا؟ فكم سنجد تأثير ذلك على هذه الحياة كلها؟

الاصلاح سبب النجاة

يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

١- سورة هود، الآية:١١٧.

تشير الآية إلى أنّ عملية الإصلاح ليست فريضةً فرديّة فحسب، بل هي سرّ بقاء المجتمعات والأمم. فإذا رأيت بلدةً قد سَلِمت من الأعاصير أو الفيضانات أو بلاء آخر، فاعلم أنّ في أهلها مصلحين ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف. وهؤلاء المصلحون هم سبب النجاة - كما أشرنا - وبهم يدفع الله البلاء عن الجميع، فالنبي لوط عليه السلام حينما خرج من قريته، قلب الله عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل، فحمل جبرائيل قراهم بطرف جناحه عالياً عند السماء الدنيا، حتى سمع أهلها نُباح كلابهم، ثم قلبها ودمَّرهم تدميرا[1].

واليوم حينما جاء الباحثون ينقبون عن آثارهم، لم يجدوا لهم أي أثر، كأنهم قد تبخروا، مثل أعمدة الدخان المتلاشية في السماء. أتذكر مرة وأنا أقرأ في مجلة عالمية، صادفتني دراسة منشورة، وهي تشير عن قوة العذاب

١- أنظر: الكافي، ج٥، ص٥٤٩.

الذي تعرض له قوم لوط عليه السلام، حيث قدروا الضربة التي حصلت أنها تعدل ألف قنبلة ذريّة مثل التي أُلقيت على هيروشيما. وهذا التفسير معقول، فحتى اليوم لا توجد حياة على تلك الأرض، لا زرع ينبت، ولا دابة تدب، حتى البحر أصبح ميتاً لا تعيش فيه أي كائنات، ويسمى اليوم بـ«البحر الميت».

من هنا فإن العاقل حين يدرك هذه الحقيقة المرعبة، عليه أن يحذف الإستهانة والتهاون من قاموس حياته، فالله سبحانه جبار السموات والأرض، لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، والإستهانة لن تزيد صاحبها إلّا تخسيراً، وقد ينتهي الأمر به كما انتهى في سدوم. بينما المؤمنون الذين يقدّرون الله حق قدره، تراهم بأقصى درجات الإلتزام بأوامر الله تعالى.

فهذه الفئة المصلحة تُدرك نهاية الدنيا، وتدرك عظيم ما بعدها، أفرادها يتقون الله ويخشونه، ونتيجة لذلك

ينهـون عـن الفسـاد في الأرض.

عـلى عكس غيرهـم مـن الأمـم السـالفة، أمثـال قـوم لـوط عليه السلام، ونـوح عليه السلام، وأصحـاب الأيكـة، وغيرهـم ممـن ذكرهـم القـرآن، كانت مشـكلتهم الأساسـية: الاسـتهانة بوعيـد الله ومحاربـة المؤمنـين و قمعهم .

الإصلاح مسؤولية جمعية

ومـن أجـل صـلاح البـشر، لا يكفـي أن يكـون الانسـان مصلحـا، بـل لابـد أن يجتمـع هـو وغـيره مـن المصلحـين، فيكوّنـون فئـةً صالحـة مصلحـة، ويقومـون بالتعـاون والتعاضـد فيمـا بينهـم مـن أجـل تطبيـق الاصـلاح عـلى المسـتوى الكبـير، ولكـن ذلـك شريطـة أن يكونوا مسـتعدّين للتضحيـة في سـبيل ذلـك، وأن يقتـدوا بسـيد الشـهداء أبي عبـد الله الحسـين عليه السلام الـذي أعلـن أن خروجـه كان مـن أجـل الإصـلاح قائـلاً:

﴿أَنِّي لَـمْ أَخْـرُجْ أَشِراً ولَا بَطِـراً ولَا مُفْسِـداً ولَا ظَالِمـاً وإِنَّمَـا خَرَجْـتُ لِطَلَـبِ الْإِصْـلَاحِ فِي أُمَّـةِ جَـدِّي﴾[١].

وقـد تحقَّـق الإصـلاح الحسـيني، ولـو كان ذلـك بقيمـة شـهادته وشـهادة الخـيرة مـن أهـل بيتـه وأصحابـه عليهم السلام وهكـذا هـي الفئـة المصلحـة.

١- بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩.

٣

عقبات أمام المسؤولية

مع أن المجتمع الاسلامي يتميَّز بثقافة المسؤولية، إلا أن هناك عقبات تحول بينه وبينها، مثل وساوس والقاءات الشيطان، أو ربما التحديات الخارجية.

ولابد لنا أن نتعرف على تلك العقبات لكي نستعد لتجاوزها، بالتوكل على الله تعالى.

تحيط بالإنسان حجُبٌ تمنعه من رؤية الحقائق والاتعاظ بها، فالغفلة، والعجب، والرياء كلها عوامل تجعل الهزيمة محتّمة لولا أن يلجأ الإنسان إلى ربِّه ليعينه عليها، وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخبرنا بهذه الحقيقة: «إِلَهِي، قَلْبِي

مَحْجُوبٌ، ونَفْسِي مَعْيُوبٌ، وعَقْلِي مَغْلُوبٌ، وهَوَائِي غَالِبٌ، وطَاعَتِي قَلِيلَةٌ، ومَعْصِيَتِي كَثِيرَةٌ»[1].

وفوق كل ذلك هناك من يُزيّن له هذه الحجب، إنه الشيطان اللعين، الذي أمرنا الرب أن نتخذه عدواً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾[2]. ورغم هذه الآية الصريحة الواضحة، يذكِّرنا الرب في سياق آخر - فضلاً عن عشرات السياقات الأخرى - يذكّرنا من جديد، وما هذا التكرار إلا لخطورة الأمر ولغفلة الناس من جهة أخرى، يقول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[3].

١- بحارالانوار، ج٨٤، ص٣٤١.

٢- سورة فاطر، الآية:٦.

٣- سورة يس، الآيات:٦٠-٦٢.

نحن نفهم عن طبيعة هذا العدو أنَّه من الجنّ، وهذا صحيح، ولكنّ وساوسه تصل إلينا عن طريق الإنس أيضا، ولذا عبّرَ الربّ عن النموذجين بتعبيرٍ شامل فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1]، فالعبادة لله وحده، دون طاغوت الجن والإنس.

ومن نجح في دحر الطاغوت (من الإنس والجن)، تكون النتيجة: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾. ويكون الجزاء: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾، يبشرهم بجميع الخيرات ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[2]، فبترك طريق الشيطان يكون المرء قد وصل لسُلّم العقل والهدى.

والقرآن الكريم مليء بذكر هذا العدو الماكر ووسائله

١- سورة النحل، الآية:٣٦.

٢- سورة الزمر، الآيتان ١٧و١٨.

الخبيثة، إذ يزيّن الباطل، ويغري بالأماني، ورُبَّ لحظة غفلةٍ واحدة توقع الانسان في شَرَكٍ من شراك ابليس، فيهوي به إلى مكانٍ سحيق.

دعونا نتأمل في الآيات القرآنية التي جاءَت للتحذير من هذا العدوّ، وبيان مكره.

أولاً: المؤمن ونزغ الشيطان

المؤمن في مواجهة دائمة مع تلك الوساوس، فمجرد أن يمسّه طائف من الشيطان يتذكّر، وبمجرَّد أن تبدأ خيوط مكره تنسج من حوله لتحرفه عن الصراط القويم، حينها يستعيذ بالله ويطلب رحمته، يقول تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

١- سورة الاعراف، الآية:٢٠٠.

فما المقصود من النزغ؟

تخيّل أنك تتسلق قمة جبل شاهق، وأنت تسير على طريقٍ ضيِّق ومنحدر خطير، هناك سيكون أيٌّ انحراف مساوياً للهلاك. تصوَّر لو جاءك شخصٌ ودفعك دفعةً بسيطة، لكنها ستكون كبيرة بالنسبة الى نتائجها، أليس كذلك؟

ربما هذا معنى النزغ، فالشيطان يدفع شهواتك باتجاه الحرام، والاستعاذة - كما قلنا - مهمة لمواجهة خطر هذا اللعين، لكن الاستعاذة الممزوجة بالتوسل إلى الله.

وقد تكون «النزغة» بهذا المعنى قريبة من معنى الهمزات في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[1].

فالشياطين قد يحيطون بنا دون أن نشعر، فعلينا الحذر.

١- سورة المؤمنون، الآية:٩٧-٩٨.

ثانيا: المتّقون وطائِفُ الشيطان

المتقـون، قـد دأبـت أرواحهـم لتسـكن إلى خالقهـا، وهـم في حالـة حـذرٍ دائـم مـن مكـرِ إبليـس، يقـول عنهـم الـرب: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَائِـفٌ مِـنَ الشَّـيْطَانِ تَذَكَّـرُوا فَـإِذَا هُـمْ مُبْـصِرُونَ﴾[1].

ولعـلَّ كلمـة الطائـف بمعـنى مـا يمـرّ بسرعـةٍ عـلى الإنسـان[2]، ولا يلتفـت اليـه الانسـان إلّا بعـد فـواتِ الأوان، فالمتقـون بحاجـة إلى ذكـر الله لتنفتـح عيونهـم، ويبـصروا الحقائـق، فتنكشـف المصيـدة، ويخسـأ ابليـس.

ومثلمـا يهـب الأب ولـده المتفـوق هديـة، يعطـي الـرب عبـده الـذي قـاوم الوسـاوس العطـاء والفضـل، فمـن طـرق لـه الشـيطان بـاب قلبـه ولـم يفتـح، ففـي المـرة الثانيـة

١- سورة الاعراف، الآية:٢٠١.

٢- ذكـر اصحـاب التفاسـير ان الطائـف مـن الطيـف والطوفـان، وهـو مـا يطـوف بالـشيء: هـو الـذي يطـوف ويـدور حـول الـشيء، فـكأن وسـاوس الشـيطان تـدور حـول فكـر الإنسـان وروحـه كالطائـف حـول الـشيء ليجـد منفـذا إليـه.

سيطرق بابه الخير العميم من الله تعالى، وهذه جائزة تنتظر من يجتاز الاختبار: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

ثالثا: بعض وسائل الغواية

يقول تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

تكشف لنا الآية عن واحدة من أهم مصائد ابليس.

فالدنيا قد تشغل المرء، فيسوّل له ابليس طلب الحرام بداعي الخوف من ألم الفقر، ويزيّن له الأعمال القبيحة فيراها حسنة وشرعية، يدخل السوق ولا يبالي أمن حلٍّ يجمع ماله أم من حرام، بل يبحث عن الربح الوفير.. متناسياً حقيقة: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾[2].

١- سورة البقرة، الآية:٢٦٨.

٢- سورة الطلاق، الآية:٢.

فالشيطان يَعِده الفقر لكي يقتحم غمار الحرام، ولكن! هل كلّ من ترك الحرام اصبح فقيراً عائلاً؟ كلا، إذ نشاهد من المؤمنين من عاش الثراء دون أن ينجرّ لأكل لقمة حرامٍ واحدة.

ومن وساوس ابليس، أنَّه قد لا يضغط على الانسان مباشرة، بل يوسوس لمحيطه فيصبحون وسيلة ضغطٍ عليه، لذلك يحذِّر القرآن الكريم من فِتنة الأولاد والزوجة قائلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[1].

فهذا الشيطان الخبيث همّه أن يدفع المجتمع والأفراد باتجاه السيئات، والمزيد من السيئات، ويمنع من التزوّد من الحسنات، في محاولات مستمرة لا تعرف التعب

١- سورة التغابن، الآية:١٤، روي عن الامام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: «إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ»: وذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا أَرَادَ الْهِجْرَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم تَعَلَّقَ بِهِ ابْنُهُ وامْرَأَتُهُ، وقَالُوا: نَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تَذْهَبَ عَنَّا، وتَدَعَنَا فَنَضِيعَ بَعْدَك، فَمِنْهُمْ مَنْ يُطِيعُ أَهْلَهُ فَيُقِيمُ، فَحَذَّرَهُمُ اللَّهُ أَبْنَاءَهُمْ ونِسَاءَهُمْ ونَهَاهُمْ عَنْ طَاعَتِهِمْ، ومِنْهُمْ مَنْ يَمْضِي ويَذَرُهُمْ ويَقُولُ: أَمَا واللَّهِ لَئِنْ لَمْ تُهَاجِرُوا مَعِي، ثُمَّ يَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ، لَا أَنْفَعُكُمْ بِشَيْءٍ أَبَداً، فَلَمَّا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُوفِيَ ويُحْسِنَ ويَصِلَهُمْ، فَقَالَ: وإِنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). [تفسير القمي ج٢، ص٣٧٢].

والتوقـف، حـتى تحـرف المؤمـن عـن الـصراط المسـتقيم، فالحيطـة والحـذر مطلوبـان مـن أجـل المواجهـة.

وحـتى نسـتطيع التغلـب عـلى الوسـاوس، فنحـن بحاجـة إلى ذكـر الله أيضـاً.

رابعاً: العداوة والبغضاء

يقـول الـربّ المتعـال في آيـةٍ مـن سـورة المائـدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾[1].

يقـال إن إبليـس قـد جمـع أعوانـه في يـوم مـن الأيـام، وحدّثهـم عـن نيتـه في إضـلال رجـل مؤمـن، كان ملتزمـاً بصلاتـه وصيامـه وسـائر فرائضـه، فسـألهم: مـن منكـم يسـتطيع إغـواءه؟

١- سورة المائدة، الآية ٩١.

فانبرى أحدهم وقال: أنا.. سآتي له بأجمل النساء، واجعله يرتكب الزنا!

فرفض إبليس.

فقام آخر وقال: أنا، سأجعله يشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير!

فرفض إبليس.

فانبرى ثالث وقال: سأمنّيه بالسلطة!

فرفض إبليس، وقال: محاولاتكم هذه عقيمة، ولن تنفع معه، فهو قد ماتت فيه الشهوات!

فانبرى رابع وقال: أنا.. سأفرِّق بينه وبين إخوانه!

فاستبشر اللعين وقال: أنت المناسب لهذه المهمة!

لكن، لماذا يختار ابليس هذا الطريق؟

لأن الفرقة ستلحقها معاصٍ كثيرة، كالغيبة، والتهمة، والحقد، والحسد، والبغضاء، والعداء، وان لم تعالج هذه المشاكل، فإنها قد تساهم في تدمير بُنية المجتمع

المسلم. قد يكون الشخص صالحاً، لديه ما لديه من الفضائل، إلّا أنه سرعان ما يضعها جانباً عند الخصومة، متناسياً قيم الدين المُثلى، كالعفو، والصفح، والتسامح، فتصبح جميع أعماله الصالحة هباءً منثوراً.

خامساً: الأماني الزائفة سلاحُ ابليس

ومن الوساوس التي ابتليت بها الأمم في السابق، واستمرت الى يومنا هذا، الأماني الزائفة، منها ما جاء في قوله تعالى حكايةً: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً..﴾، ثمّ سرعان ما ينقضي كلُّ شيء، يجيب الربّ على هذا التخرص: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، فبما أن الرب لم يخبركم بذلك، فاحذروا إنها خديعة من الشيطان، وبذلك يوضح السياق الفرق بين عهد الله تعالى

١- سورة البقرة، الآية:٨٠.

وغـرور الشـيطان.

ثـم يخبرهـم بجزائهـم الحقيقـي: ﴿بَـلَى مَـنْ كَسَـبَ سَـيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِـهِ خَطِيئَتُـهُ فَأُولَـئِكَ أَصْحَـابُ النَّـارِ هُـمْ فِيهَـا خَـالِدُونَ﴾[1]. فهـم سيلبثون فيهـا خالديـن، وليـس اياماً معـدودة كمـا بنـت تصوراتهـم الباطلـة.

سادسا: وساوس شيطانية اخرى

وبعـد ذلـك لإبليـس وسـاوس متعـددة يخـدع بهـا الانسـان، فمنهـا أن يسـتبدل الإنسـان طاعـةً بأخـرى، فالشـيطان قـد لا يدفـع الإنسـان نحـو المعصيـة، ولكنَّـه يجعلـه يركـز عـلى بعـض أعمالـه الصالحـة، كالصـلاة والصيـام، ويجعلهـا بديلـةً عـن بعـض الفرائـض المتعلقـة بالمجتمـع، فيقنعـه بـترك فريضـتي الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، أو تـرك الدفـاع

١- سورة البقرة، الآية:٨١.

عـن المظلـوم والاهتمـام بالنوافـل والصلـوات المسـتحبة فقـط.

روي عـن الإمـام الصـادق عليه السلام أنـه قـال: «أُقْعِـدَ رَجُـلٌ مِـنَ الْأَخْيَـارِ فِـي قَبْـرِهِ، قِيـلَ لَـهُ: يَـا أَبَـا خَالِـدٍ إِنَّـا جَالِـدُوكَ مِائَـةَ جَلْـدَةٍ مِنْ عَـذَابِ اللَّـهِ. فَقَـالَ: لَا أُطِيقُهَـا. فَلَـمْ يَزَالُـوا بِـهِ حَتَّـى انْتَهَـوْا إِلَـى جَلْدَةٍ وَاحِـدَةٍ. فَقَالُـوا: لَيْـسَ مِنْهَـا بُـدٌّ. فَقَـالَ: فِيمَـا تَجْلِدُونِّـي فِيهَـا؟ قَالُـوا: إِنَّـكَ صَلَّيْـتَ يَوْمـاً بِغَيْـرِ وُضُـوءٍ، وَمَـرَرْتَ عَلَـى ضَعِيـفٍ فَلَـمْ تَنْصُـرْهُ. قَـالَ: فَجَلَـدُوهُ جَلْـدَةً مِـنْ عَـذَابِ اللَّـهِ عَـزَّ وَجَـلَّ فَامْتَـلَأَ قَبْـرُهُ نَـارا»[1].

كان ذلـك لأنـه في يـومٍ مـا صـلّى صـلاة واجبـة بغـير وضـوء، ورأى مظلومـاً يُظلـم فلـم ينـصره ولـم يحـرّك سـاكناً. فـتَركُ بعـض الواجبـات وعمـلُ البعـض الآخـر لا يُخـرج المـرء مـن خانـة المسـؤولية.

ومـن صـور الأمـاني الزائفـة، انـكار الآخـرة فـراراً مـن مسـؤولية الأعمـال، قـال تعـالى: ﴿وَقَـالَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لَا تَأْتِينَـا

١- ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، ص٢٢٤.

السَّاعَةُ﴾، فيأتي التأكيد الصارم من الرب للرد على مزاعمهم: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ..﴾[1]. فالجزاء حق كما الموت حق.

أما اتصال أهل البرزخ بالدنيا فهو باقٍ، ومما ورد في ذلك الرواية التالية: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، وَصَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»[2].

ومن صور مكائده أيضا، تأجيله التوبة، والاستهانة بعذاب جهنَّم، حيث يقول البعض: لا بأس أن نعذَّب في جهنم بعض الوقت! ولكن غاب عن فهم هذا البعض الحقيقة المزلزلة أنّ الشمس بنفسها وبكل عظمتها لو أُلقيت في جهنّم لضجَّت من حرارتها، فكيف يطيق بشر ضعيف أن يتحمّلها؟ أليس حرّها شديد، وقعرها بعيد، وظلامها دامس؟

١- سورة سبأ، الآية٣.
٢- عوالي اللئالي العزيزية، ج٣، ص٢٦٠.

سألني أحدهم يوماً: ما أعظم دعاء أدعو به؟ قلت له: الخلاص من نار جهنّم. كما علّمنا الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة. قال: لماذا؟ قُلتُ: ألم تقرأ هذه الرواية لو أنّ عبدًا مُجَّ (غُمس) في النار مجّة واحدة ثم سُئل: هل رأيت خيرًا قط؟ لقال: ما رأيت خيرًا قط! أي أنّ كلّ ما ذاقه في حياته من نعيم لا يساوي لحظة واحدة من ألم نار جهنم.

ومن مكائده الخطيرة تأجيل التوبة، فالبعض يؤجّلون التوبة بحجج واهية، فهناك شاب ينتظر أن يكبر بعض الشيء، وهناك من ينتظر لما بعد الحج، وهناك من يؤجل الى رمضان القابل، وهكذا... وليتهم علموا هل يستطيعون ضمان البقاء؟ وقد عبّر القرآن عن هذا التسويف بقوله: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، ولعلّ من مفردات التربّص كلمة «سوف».

فالتسويف هو أكثر ما يندم عليه أهل النار يوم القيامة.

وعنـد الأجـل تتعـالى أصـوات النـدم: ﴿حَـتَّى إِذَا جَـاءَ أَحَدَهُـمُ الْمَـوْتُ قَـالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ لَعَـلِّي أَعْمَـلُ صَالِحًـا فِيمَـا تَرَكْـتُ﴾ فيـأتي الجـواب القاصـم: ﴿كَلَّا إِنَّهَـا كَلِمَـةٌ هُـوَ قَائِلُهَـا وَمِـنْ وَرَائِهِـمْ بَـرْزَخٌ إِلَى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ﴾[1].

فـلا يـدري المـرء مـتى يطـرق ملـك المـوت بابـه، فيغـط في سـبات عميـق عـن الدنيـا، ويصحـو بـكل شـعوره ليلامـس المـوت، حيـثُ العالـم الجديـد. أكـثر الذيـن يفاجئهـم المـوت، أو ل أمـرٍ يطلبونـه، أن يُمنحـوا المُهلـة، ولـو لفـترة يسـيرة، ولـو يومـاً واحـداً، ولـو سـاعةً واحـدة ليصلحـوا مـا فـات أو يتداركـوا مـا ضـاع. ولكـن هيهـات! فقـد انتهـت الأيـام والسـاعات، وجـاء وقـت الحسـاب والجـزاء.

فالعاقـل لا يسـوِّف التوبـة، ولا يعلـق أملـه عـلى الغـد المجهـول. ولذلـك عليـه اغتنـام اللحظـة الحـاضرة، فإنّـه لا

١- سورة المؤمنون، الآيتان:٩٩و١٠٠.

يـدري أيبقـى حيًّـا إلى الغـد، أم لا؟ ولا يـدري عـن مصـيره أيضـاً، فقـد يُسـلب منـه إيمانـه عنـد الـنزع.

فـكُلُّ شـعرة بيضاء تعـني نذيـراً، تقـول: حَـضّر امتعتـك، كل يـوم يمـضي يرتحـل دون أن يعـود، ويثلـم معـه جـزءاً مـن العمـر. قـال الامـام الباقـر عليه السلام: «أَصْبَـحَ إِبْرَاهِيـمُ فَـرَأَى فِـي لِحْيَتِهِ شَـعْرَةً بَيْضَـاءَ، فَقَـالَ: الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّـذِي بَلَّغَنـي هَـذَا الْمَبْلَـغَ ولَـمْ أَعْـصِ اللَّـهَ طَرْفَـةَ عَيْـنٍ»[١].

فلنكـن جادّيـن في تـرك المعـاصي، ولا نؤجّـل العمـل، فـإنّ سـاعة المـوت قـد تأتينـا ونحـن في غفلـة، ولـن يحصـل أحدنـا بعدهـا حـتى عـلى مهلـة طفيفـة ليغلـق عينيـه، أو يفتحهمـا.

وإلى هنـا ذكرنـا جملـة مـن وسـاوس الشـيطان ومصائـده، ومـا لـم نذكـره الكثـير جـداً، وهــذا الأمـر يطلـب منّـا أن نكـون حذريـن دائمـاً، فـأي خطـوة خاطئـة قـد تعـني الخسـران الأبـدي المبـين.

١- الكافي، ج٨، ص٣٩٢.

لنستعذ بالله ربِّ العالمين

إنَّ الشيطان وسوس لآدم بأن يأكل من الشجرة، حين أخبره بأنها ستمنحه أكثر أمرين يحبهما البشر: الخلود والمُلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾[1].

فرفض آدم أولاً، لأنَّ الله كان قد نهاه عن ذلك، فكذب إبليس وقال: إن الله قد نهاك في الماضي، وليس الآن، وأقسم بعزّة الله أنه صادق. فلم يظن آدم أن هناك مخلوقاً يمكن أن يقسم بالله كاذباً، فصدق ابليس وتناول من الشجرة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[2].

لذا فالمعركة عنيفة وقاسية، ويتحتّم علينا فيها أن نكرّر هذا الدعاء دائماً: «[اللهم] وأَعِنِّي عَلَى نَفْسِي بِمَا

١- سورة طه، الآية١٢٠.

٢- سورة طه، الآية:١١٥.

تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم»[١] ليتغلّب العقل على الهوى والشيطان، ونبصر طريق النور، وتَرَجَح كفة الإيمان.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لكميل أنه قال: **«يَا كُمَيْلُ! إِذَا وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ فِي صَدْرِكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ الْقَوِيِ مِنَ الشَّيْطَانِ الْغَوِيِّ، وأَعُوذُ بِمُحَمَّدٍ الرَّضِيِّ مِنْ شَرِّ مَا قُدِّرَ وقُضِيَ، وأَعُوذُ بِإِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِين»**[٢].

١- بحارالانوار، ج٨٤، ص٢٤٩.

٢- بحارالانوار، ج٧٤، ص٢٧١.

٤

معرفة السنن، سبيلُ المسؤولية

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1].

الخلق وما فيه من عوالم مختلفة، من شمس وقمر ومخلوقات أخرى تفوق التصور، كلها تحت حماية الله ومشيئته وتدبيره، وكما يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2].

١- سورة الاعراف، الآيتان: ١٦٥و١٦٦.

٢- سورة طه، الآية:٥.

وهـذه الحقائـق واضحـة مثـل وضـوح الشـمس في رابعـة النهـار، لكـن مشـكلة البـشر أنـه يعيـش «السـطحية»، فـلا يـرى سـوى جـزءٍ صغـيرٍ مـن الحقيقـة الـتي تحيـط بـه، ويغفـل عـن الحقائـق الكـبرى، ومثلـه مثـل مـن وُلِـد وترعـرع في زنزانـةٍ ضيِّقة، لـم يـر مـن العالـم سـوى جدرانهـا الأربع، حيـث يتصـوَّر حينها أنَّهـا هـي العالَـم!

هكـذا هـو حـال الكثـير مـن البـشر، لا يـرى في العالـم آيَـةً، وإن رآهـا فهـو لا يهتـدي عبرهـا إلى أيَّـة بصـيرة، ولا يـرى أثـر الله في كل زاويـةٍ مـن زوايـا هـذا الوجـود، يـرى الشـجرة لكنـه لا يهتـدي إلى خالقهـا، ويـرى الشـمس ولا يـرى مكوِّنهـا ومجريهـا. يـرى الخليقـة كلَّهـا، ولا يهتـدي بهـا إلى ربِّـه، أو إلى أسـمائه الحسـنى، فـلا يصـل إلى أنَّ الله حكيـم، وهـو يـرى أثـر الحكمـة، ولا يُـدرك بأنـه عـلى كل شيءٍ قديـر، وهـو يـرى القـدرة.. وحـتى لـو عـرف ذلـك فـلا يربـط بـين تلـك الحقائـق وبـين مـا جـاء بـه مـن قبـل الـرب.

فهـو يـرى أثـر الحكمـة في التكويـن ويعـترف بـه، لكنَّـه يُنكـر الحكمـة في التشريـع، لأنـه يغفـل أنَّ صاحـب الكـون هـو الـذي أنـزل اليـه الأحـكام، فأمـره بمـا يعـرف أنَّ فيـه صلاحـه، وينهـاه عمـا يعـرف أن فيـه فسـاده.. فأمْـرُه بحكمـة، ونهيُـه بحكمـة.

فكمـا أن الأطبـاء يمنعـون المـرضى مـن تنـاول بعـض الأطعمة والأشربـة، لكـن، هـل رأيـتَ أحـداً يلـوم طبيبـاً في منعه؟

كلا، لأن الـكل يفهـم أن السـلامة في نهيـه، والشـفاء في أمـره. والـرب هـو طبيـب البـشر، طبيـب مـن لا طبيـب لـه، لا يحرمنـا مـن عمـل، ولا يأمرنـا بآخـر إلا بمـا يعـود علينـا بالخـير والصلاح.

معرفة السنن الإلهية

ومـن الحقائـق الـتي لابـد أن نـرى أثـر القـدرة والحكمـة الالهيـة فيهـا، هـي أن لله سـبحانه وتعـالى سـننا أجراهـا في الخليقـة، وهـي ثابتـة لـن تجـد لهـا تبديـلا ولا تحويـلا.

ومن تلك السنن، أن الله تعالى جعل لكل فعلٍ أثراً، وحتى لو لم يجد الانسان ذلك الأثر مباشرة وبصورة واضحة، إلا أن اثر ذلك موجود.

فحين تتفشى المحرمات، وتظهر الفواحش، يكثر في ذلك البلد موت الفجأة، ينام أحدهم في سباتٍ عميق ولا يصحو، يبقى مستلقياً وروحه تأبى الرجوع لجسده، يفحصه الأطباء ليتبيّن أن موته قد مضت عليه مدّة، ودون سبب. جاء عن النبي ﷺ: «إِذَا كَثُرَ الزِّنَى مِنْ بَعْدِي، كَثُرَ مَوْتُ الْفَجْأَةِ»[1].

وهكذا، ما من خدشٍ أو عثرةٍ إلا بذنب، وهذا تطبيق للقاعدة الفيزيائية التي تقول: «لكل فعل رد فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الاتجاه»، فانعكاسات الأعمال - خيرها وشرها - أمرٌ واقعٌ لا محال، عاجلاً أم آجلاً، وما يحدث للمجتمعات بل الحضارات، إنما هو انعكاس لمجموع أعمالها، والتي تظهر بعد حين. والتاريخ مليءٌ

١- الكافي، ج٥، ص٥٤١.

بالعـبر لكـن لمـن أراد الاعتبـار.

آخر ضحايا الـحجَّاج

يـروى في قصـص سـفاح بـني أميـة، الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي، أنـه لمّـا أراد قتـل التابعـي سـعيد بـن جبـير ﷺ بـدأ بـكل تكـبر يُكلـم سـعيداً، وسـعيد بـدا كأنـه أسـد شـجاع وُضـع في قفـص وقـد أحاطـت بـه الضبـاع، فقـال لـه الحجَّـاج: فاختر أي قتلـة اقتلـك. قـال: أخـتر لنفسـك يـا حجـاج!

كيـف ذلـك؟! ربمـا سـأل الحجـاج هـذا السـؤال بكلمـاتٍ امتزجـت بالعجـب. قـال سـعيد وهـو مسـتعد لتلقـي ألـم المـوت: فـو الله مـا تقتلـني قتلـةً إلا قتلـك الله مثلهـا في الآخرة[١].

هـذه هـي الدنيـا، تشـبه كثـيراً «الـدولاب الـدوّار» المركـون في إحـدى زوايـا مدينـة الالعـاب، تـارة يصعـد هـذا الـدولاب

١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٤، ص٢٨١.

ليحلِّق بأهله في الجو، وأخرى ينزل بهم إلى الأرض، فمن صفات الدنيا تقلّب أحوال الناس بين رخاءٍ وشدة، حتى قيل: «دوام الحال من المحال».

واستمر الحوار بينهما، والنتيجة واضحة: أن قُتِلَ سعيد، لكنَّه طلب من الله تعالى قبل مقتله، أن يأخذ مُهلته من الحجّاج، ولا يسلِّطه على أحدٍ من بعده.. وكان كما أراد سعيد.

وقيل: إنه في مدة مرضه كان الحجاج إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذا بمجامع ثوبه يقول له: يا عدو الله فيم قتلتني؟ فيستيقظ مذعورا ويقول: مالي ولسعيد بن جبير[1]، وهكذا بقي أياماً حتى هلك.

فبين غطرسة الحجّاج.. وبين ندائه بالويل والثبور.. أيامٌ معدودة.

وبين غطرسة فرعون، وندائه (أنا ربُّكم الأعلى)، وبين

١- وفيات الأعيان (ابن خلكان)، ج٢، ص٣٧٣.

هلاكـه، هـو وجنـوده في اليـمّ.. أيـامٌ معـدودة.

وهكـذا رأينـا في هـذه الأيـام.. كيـف كان يتشـفّى الصهاينـة بمشـاهد أشـلاء الشـعب الفلسـطيني، ويطربـون فرحـاً عـلى مشـاهد بيوتهـم المهدَّمـة.. فمـا مـرَّت أيـام حـتى صـارت الصواريـخ تنهـال عـلى عاصمتهـم، فبـدأ الفلسـطينيون هـذه المـرَّة بابـداء فرحهـم، وذلـك في اثنـاء الحـرب الـتي شـنَّها الكيـان عـلى الجمهوريـة الإسـلامية في ايـران. وهكـذا هـي سنّة الله، ففـي التاريـخ، وفي الحـاضر عِظـاتٌ وعِـبر، لكـن هـل يعتـبر البـشر بهـا؟ هـذا هـو السـؤال.

إنَّ الباطل كان زهوقا

ومـن سـنن الله تعـالى، أنَّ الباطـل مهمـا قـوي عـوده واشـتدّ، يبقـى باطـلا.. بـل هـو حـين يقـوى عـوده يكـون أقـرب إلى نهايتـه، لأنَّـه يكـون حينهـا أبعـد مسـافة عـن الحـق، وكلمـا

ابتعـد عـن الحـق اقـترب مـن نهايتـه.

فهذا التاريخ الحديث شاهد على هذه الحقيقة.

فمـا يجـري اليـوم في فلسـطين، ومـا نشـاهده مـن الاجـرام بحـق شـعوب المنطقـة المسـلمة، والغطرسـة الغربيـة، كل ذلـك كان سـبباً في أن تنقلـب الأمـور عليهـم.

فبعـد حـرب غـزة الأخـيرة بـدأ العالم ينظـر لدويلـة الصهاينة اللقيطـة بحقـارة واشـمئزاز وكأنهـا جسـمٌ أصيـب بـ«سوسـة» فسـيطر عليـه الجـرب. فـكل مـا فعلـه رئيسـهم وبدعـمٍ مسـتمر مـن دولٍ حولـت العالـم إلى غابـة، هـذا الفعـل عـاد عـلى شـعبه بالويـل والبـلاء. هـل فكـر مـاذا سـيكون موقـف أجيـال اليـوم في العالـم عندمـا تصـل الى مراكـز أدارة بلدانهـا، وهـي ناقمـة؟

مشـكلة هـذه الطبقـة، انهـا تحـصر تفكيرهـا في اللحظـة الراهنـة فقـط، وأمـا أحـداث المـاضي، والنتائـج المسـتقبلية، فيغفلـون عنهـا.

لنتصفح التأريخ، هل يعلم الجميع أن الصين قد خَسرت يوماً أمام بريطانيا التي كانت القوة العظمى آنذاك؟ نعم، فالصين التي تفوق بريطانيا اليوم في كل شيء، كانت في الماضي مستعمرة ضعيفة، وذلك قبل حوالي مائة عام فقط.

لقد امتلكت بريطانيا من القوة حينها ما جعلها تمتد على مساحات شاسعة، حتى عُرفت بـ«الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس» فحكمت البلاد والعباد. وسقط أمام ترسانتها التنين الصيني، وكانت من نتائج تلك الهزائم المريرة خسارة الصين لجزيرة «هونغ كونغ».

ولم تكتفِ المملكة المتحدة بهذا الإنجاز، بل حصلت - مع دول غربية أخرى - على نفوذ اقتصادي وسياسي كبيرين داخل الصين.

ولتعزيز سلطانها على المنطقة أكثر، عمدت إلى نشر المخدرات هناك، وقد نجحت خطتها. وعندما أدرك

الصينيـون حجـم الخطـر، بـدأوا المقاومـة، فوقعـت مـا عُرف بـ (حـروب الأفيـون) الـتي كانـت نهايتهـا هزيمـةً مريـرة للصينيـين.

لكن هل بقيت الأمور على حالها؟

كلا! فاليـوم نجـد أن الظـروف قـد تغـيَّرت، فتحـررت الصـين، وصـارت تُعـرف بـ(مصنـع العالـم) لمـا تمتلكـه مـن قـدرات صناعيـة هائلـة. ولـم يعـد هنـاك مجـال للمقارنـة بينهـا وبـين بريطانيـا. لكـن هـل هنـاك مـن يتعـظ؟

أبى الله للباطل أن يستمر

إن الله تعـالى أبى للظلـم أن يسـتمر، كمـا أبى أن يدخـل الجمـل في سـم الخيـاط، فـلا بـد بعـد صيـفٍ حـارق مـن ربيـع بهيـج، وبعـد عُسـرٍ مـن يُسـر.

يقـول تعـالى وهـو يحدثنـا عـن زوال الباطـل: ﴿إِنَّ شَـانِئَكَ هُوَالأَبْـتَرُ﴾[1]. ومعـنى (الأَبْـتَرُ) مـن لا عقـب لـه، أو بمعـنى آخـر

١- سورة الكوثر، الآية:٣.

من لا يؤمن بالحق.

إذن: كُلّ من يخالف الحق يزول، ذلك لأن الباطل يومه قصير، وحسابه شديد، فقوم النبي نوح ﷺ الذين أصروا أن يتمسّكوا بجهلهم وعنادهم رغم وضوح الآيات، كانت عاقبتهم أن ييّس الله أصلابهم، وحين كَبُرَ سنهم، نزل عليهم العذاب وليس فيهم طفل، واليوم ما يحصل في أوربا يُشبه ذلك، حيثُ انتشرت الشيخوخة في كل أرجاء البلاد، أصبحت مجتمعاتهم تفتقر للسكان من اجل القيام بأعباء العمل والانتاج، مما دعاهم لفتح الباب والتشجيع على اللجوء حتى يسدوا النقص البشري الحاصل، ثم أخذوا يتفوهون بالكذب ليصنعوا منه بِذلة يلبسها السذج، حيثُ يقولون: إن هؤلاء المغتربين هُم من لجأ لبلادنا دون أي تدخل منّا!



٥

وصايا في الاصلاح

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

حين ضيَّع المسلمون الفرائض الإلهية في المجتمع الإسلامي، وجدنا آثارَها في حياة مجتمعاتنا.. ضيّعوا فرائض مثل: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإحسان إلى الآخرين و..، وكان السبب لهذا التضييع أن المجتمع قد

١- سورة الروم، الآية:٩.

أصيب بمرض النسيان، ليس النسيان للمادة أو الشهوة، فهذان قابعان دائماً داخل حدود عقل المجتمع، بل نسيان الله تعالى، وكما أخبر بذلك الرب تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، فمن يعرف الرب سبحانه يطبق أحكامه، ويتّبع حدوده، ومن نسي الله أصبح فاسقاً بالأحكام والحدود.

والآن، كيف ترجع الأمة إلى الله؟

عندما تتعلق بأستار أبوابه، ومن أبوابه الكبيرة: هو الإمام الحسين عليه السلام، فهذه العودة الميمونة تمثل دورة توحيدية تختم المعارف في القلب، ألم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حقه: «حُسَيْنٌ مِنِّي وأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ. أَحَبَ اللَّهُ مَنْ أَحَبَ حُسَيْناً. حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاط»[2]، وقال: «مِصْبَاحُ هُدى وَسَفِينَةُ

١- سورة الحشر، الآية:١٩.

٢- الارشاد (الشيخ المفيد)، ج٢، ص١٢٧.

نَجَاة»[١]؟

لنتصور ما كان هدف هذا الإمام الطاهر؟ لماذا خرج ولأجل أي شيءٍ أرخص النفس والمال والعيال والأصحاب؟ أليس من أجل: **«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**؟ وكما قال عليه السلام: **«انِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً ولَا بَطِراً ولَا مُفْسِداً ولَا ظَالِماً، وإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي صلى الله عليه وآله وسلم أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وأَنْهَى عَنِ الْـمنْكر»**[٢].

ولأن الإمام الحسين عليه السلام قد كرس ذاته لخدمة الدين، حتى حينما حُمل رأسه على الرمح كان يرتل آيات القرآن، وكما يقول الشاعر:

يَتْلُوالكِتابَ وَما سَمِعْتُ بواعِظٍ ... اتَّخَذَ القَنا بَدَلًا عَنِ الأَعْوادِ

من اجل ذلك، كان علينا أن نتأمل جيداً في هذا المنهج والطريق، حتى نُصبح كما يقول تعالى: ﴿خَيْرَ

١- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٦٢.
٢- بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩.

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

ومن أجل بناء مجتمعٍ راسخ القدم، قوي البُنية، قادر على خوض الغمار، لابد من عدة توصيات مهمة، وهي:

أولاً: التدبُر في آيات القرآن

إنّ الله سبحانه تجلى في كتابه لعباده، غير أن الناس لا يبصرون هذا التجلي، فحين قراءتهم للآيات يمرون عليها من دون وعي لمحتواها وبلا تدبر لمفاهيمها رغم أن الله حثّ قائلاً: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2]، ومن يقرأ الآيات بهذه الطريقة أنى له الاستئناس بالقرآن؟ من هنا نعرف لماذا قال الإمام السجاد: «لَومَاتَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَمَا اسْتَوْحَشْتُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ

١- سورة آل عمران، الآية:١١٠.

٢- سورة محمد، الآية:٢٤.

مَعِـي»[١] لأنـه كان يقـرأ القـرآن حسـب مـا أراد القـرآن.

وبكلمـة: القـرآن كلام الـرب الـذي يفضـح الفـتن، ويقـوي البصـيرة، وكمـا يقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام: «وَعَلَيْكُـمْ بِكِتَـابِ اللّـهِ فَإِنَّـهُ الْحَبْـلُ الْمَتِيـنُ، وَالنُّـورُ الْمُبِيـنُ، وَالشِّـفَاءُ النَّافِـعُ، وَالـرِّيُّ النَّاقِـعُ، وَالْعِصْمَـةُ لِلْمُتَمَسِّـكِ، وَالنَّجَـاةُ لِلْمُتَعَلِّـقِ، لَا يَعْـوَجُّ فَيُقَـامَ، وَلَا يَزِيـغُ فَيُسْـتَعْتَبَ، وَلَا تُخْلِقُـهُ كَثْـرَةُ الـرَّدِّ، وَوُلُـوجُ السَّـمْعِ، مَـنْ قَـالَ بِـهِ صَـدَقَ، وَمَـنْ عَمِـلَ بِـهِ سَـبَقَ»[٢]، وذلـك لأنـه: «قَائِـدٌ إِلَـى الرِّضْـوَانِ أَتْبَاعَـهُ، وَمُـؤَدٍّ إِلَـى النَّجَـاةِ أَشْيَاعَـه» كما تقـول الصديقة الزهـراء عليها السلام[٣].

ثانياً: أخذ العبر من الماضي

تقـول الحكمـة: «اللبيـب هـو مـن يتعلـم مـن اخطائـه، أمـا الحكيـم فيتعلـم مـن تجـارب الآخريـن» فحـتى لا يُبتـلى

١- الكافي، ج٢، ص٦٠٢.
٢- نهج البلاغة، ص٢١٩.
٣- علل الشرائع، ج١، ص٢٤٨.

الإنسان بأعمال الظلم، وحتى يقترب من رحمة الله سبحانه، عليه أخذ الدروس والعبر من تجارب السالفين، فيفكر في نهاياتهم المذلة والمشينة.

وفي التاريخ ملايين العِبَر لمن أراد أن يعتبر، ومن عِبَر الدهر يزيد بن معاوية، الذي مات بطريقة تبيّن كيف أن الدنيا ضيقة، كان ذاهباً للصيد بمفرده، وفي الأثناء شعر بعطشٍ شديد، أخذ يتفقد المكان، وإذا برجل معه صحن ماء، فقال: يا هذا إسقني قليلا من الماء. فلما سقاه قال: لو عرفت من انا لازددت من كرامتي. فقال له: ومن تكون؟ قال: أنا أمير المؤمنين يزيد بن معاوية. فقال الرجل: أنت والله قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام يا عدو الله؟ ثم نهض ليلزمه فنفر من تحته فرمى به عن مستتر فعلقت رجله بالركاب، فجعل الفرس كلما رآه خلفه نفر، فلم يزل كذلك إلى أن مزقه وعجل الله بروحه إلى النار[١]. واليوم لا يوجد لهذا المتكبر حتى قبر، لم يحصد

١- انظر: اللهوف في قتلى الطفوف، ص١٥١.

سوى اللَعَنات، تلاشى مثل ذرات تراب عصفت بها رياح عاتية. لهذا لا نستغرب من كثرة الآيات الكريمة التي دعت للتأمل في عاقبة الماضين، منها:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢].

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[٣].

وأيضاً ورد في هذا الخصوص عن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ**». قيل: كَيْفَ يَتَفَكَّرُ؟ قَالَ: «**يَمُرُّ**

١- سورة الروم، الآية:٩.

٢- سورة يوسف، الآية:١١١.

٣- سورة الانعام، الآية:٦.

بِالْخَرِبَـةِ وبِالـدَّارِ فَيَتَفَكَّـرُ فَيَقُـولُ: أَيْـنَ سَـاكِنُوكِ؟ وَأَيْـنَ بَانُـوكِ؟ مَـا لَكِ لَا تَتَكَلَّمِيـنَ»[1].

وأيضاً لا ننسى أن نعتبر بواقع المجتمعات الحاضرة.

ثالثاً: شكر النعم الإلهية

حينمـا تسـتيقظ صباحـاً، فكـر في سـلامة عينيـك، وصحـة جسـدك، فكّـر في نعمـة الأمـن، فـ«نِعْمَتَـانِ مَكْفُورَتَـانِ: الْأَمْـنُ والْعَافِيَـةُ»[2] كمـا يقـول الرسـول ﷺ.

لذلـك مـن المسـتحبات الأكيـدة الـواردة بعـد صـلاة الصبـح هـو الشـكر والاعـتراف بـآلاء الله تعـالى، كمـا يقـول النـبي ﷺ:

«مَنْ أَصْبَحَ وَلَا يَذْكُرُ أَرْبَعَةً أَخَافُ عَلَيْهِ زَوَالَ النِّعْمَةِ.

أولُهَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَرَّفَنِي نَفْسَهُ، وَلَمْ يَتْرُكْنِي عَمْيَانَ الْقَلْبِ.

وَالثَّانِي يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١- الزهد، ص١٥.

٢- الخصال، ج١، ص٣٤.

وَالثَّالِـثُ يَقُـولُ: الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّـذِي جَعَـلَ رِزْقِـي فِـي يَدَيْـهِ وَلَـمْ يَجْعَـلْ رِزْقِـي فِـي أَيْـدِي النَّـاسِ.

وَالرَّابِـعُ يَقُـولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَـتَرَ ذُنُوبِـي ولَـمْ يَفْضَحْنِـي بَيْـنَ الْخَلَائِـقِ»[١].

المؤمـن حينمـا يتفكـر بمـا خصـه الله بـه مـن نعـم، يشـعر بالإطمئنـان. عـلى العكـس مـن غـيره، إذ يعيـش حالـة السـلبية المسـتمرة، بينمـا المؤمـن يـزداد شـكراً ويزيـده الـرب في العطاء:

﴿لَئِـنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢].

رابعاً: الحفاظ على الإيمان

عـن طريـق الحصـول عـلى فرصـة ذهبيـة للتوبـة، نحصـل عـلى غفـران الذنـوب، والتطهـر مـن الدنـس، وبذلـك نحافـظ عـلى الإيمـان، ليضحـى الواحـد منّـا ناصـع البيـاض. ونقـرر

١- بحارالانوار، ج٨٣، ص٢٨٢.

٢- سورة ابراهيم، الآية:٧.

جاهديـن ألّا نتلـوث مـرة أخـرى بالخطايـا، حـتى لـو ضغـط المجتمـع علينـا أو عصفـت بنـا الشـهوات.

عـن طريـق ذكـر الله، نتـضرع ونقـول: «وأَعِنِّـي عَلَـى نَفْسِـي بِمَـا تُعِيـنُ بِـهِ الصَّالِحِيـنَ عَلَـى أَنْفُسِـهِم»، وأيضـاً نتذكـر العمـل الصالح.

خامساً: تحصين المجتمع

الحفـاظ عـلى المجتمـع مـن أن يقـع في رحـى الـزلات والخطيئـات، فتطحنـه ليتحـول إلى قطـع مـن اللقمـات السـائغة في متنـاول أعـداء الديـن. والمحافظـة تكـون عـن طريـق التـواصي، والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، وأن نقـف إلى جنـب بعضنـا مثـل بنيـانٍ مرصـوص، لمقارعـة الفسـاد.

الفهرس